أحوال الغارقين

لفضيلة الشيخ خالد الراشد

الباب الأول: المقدمة

حديثنا اليوم عن أحوال الغارقين.

وحديثنا ليس عن الغارقين في البحار والأنهار، فهؤلاء – إن ماتوا على الصلاح – كانوا شهداء عند العزيز الغفّار.

لكن حديثنا عن الغارقين في الشهوات والملذّات، يرتوون منها وكأنهم مخلّدون في هذه الحياة، نسوا أن الدنيا دار ممر وامتحان، وأن بعدها جزاء وحساب، ووقفة تشيب لها الولدان أمام خالق الكون وجبار الأرض والسماء.

إنها رسالة إلى التائهين الذين ارتسمت على وجوههم مسحة البؤس والضياع، بسبب إغراقهم في الذنوب والمعاصي التي أعمت قلوبهم، وأنقصت عقولهم، وأزالت عنهم النعم، وأحلّت بهم النقم.

الباب الثاني: حالهم مع الصلاة

ليلهم ونهارهم سواء، يظنون أن السعادة في لذة وشهوة، أو في سفر وسياحة.

لكنهم ينسون أن الصلاة هي عمود الدين، وأنها أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة.

يستيقظ أحدهم قبل الفجر بساعات لموعد سفر أو رحلة، لكنه لا يستطيع أن يستيقظ لصلاة الفجر!

يتكاسل عن الجماعة، ويهجر المسجد، وربما صلى بلا خشوع ولا حضور قلب.

وقد قال النبي ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر».

الباب الثالث: حالهم مع اللهو والغناء

أوقاتهم لهو ولعب، وغناء وطرب.

يعرفون أسماء المغنين والمغنيات، ويحفظون كلمات الأغاني، لكنهم لا يعرفون أسماء العشرة المبشّرين بالجنة، ولا يحفظون من القرآن إلا قليلاً.

يرفعون أصوات المعازف في سياراتهم وبيوتهم، ولا تتحرك قلوبهم لسماع القرآن.

وقد قال النبي ﷺ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِر والحرير والخمر والمعازف».

الباب الرابع: حالهم مع الشهوات

همّهم الأكبر اتباع الشهوات وهتك الأعراض، يطاردون الساذجات ويزينون لهن الفاحشة.

وقد جاء شاب إلى النبي ﷺ يستأذنه في الزنا، فقال له: "أترضاه لأمك؟ أترضاه لأختك؟" حتى قال الشاب: "جعلني الله فداك، والله لا أحب الزنا بعد ذلك".

أما الغارقون فقد أعمى الشيطان قلوبهم، فصاروا يفتخرون بالمعصية، ويجاهرون بالفاحشة.

الباب الخامس: حالهم مع الذنوب والمعاصي

صارت الذنوب لهم عادة ومنهج حياة.

يسمعون المواعظ ولا يتأثرون، يشيّعون الجنائز ولا يعتبرون، يرون الحق بأعينهم ثم يعرضون عنه.

قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾.

فلا راحة لهم ولا طمأنينة إلا بالرجوع إلى الله.

الباب السادس: من أخبار الغارقين

قد يتوب بعضهم ويركب سفينة النجاة، فيبدأ رفقاء السوء حربًا عليه، يذكّرونه بماضيه ويسخرون من توبته.

ومنهم من يصر على الضياع حتى تأتيه المنية:

ذكر الشيخ قصة شاب تاب فترة قصيرة، ثم رجع لرفقاء السوء، فشرب الخمر وزنى، فمات على تلك الحال – والعياذ بالله.

الباب السابع: ماذا تصنع الذنوب؟

الذنوب والمعاصي سبب هلاك الأمم السابقة:

أغرق الله قوم نوح.

أهلك عادًا بالريح.

أهلك ثمود بالصيحة.

أغرق فرعون وجنوده في البحر.

خسف بقارون وداره.

قلب قرى قوم لوط فجعل عاليها سافلها.

فما من هلاك إلا وسببه المعاصي والذنوب.

الباب الثامن: من أخبار الناجين

في ثلث الليل الآخر، وفي صلاة القيام، تاب شاب بعد سنوات طويلة من الضياع.
قال: كنت غارقًا في المعاصي، لا أعرف للمسجد طريقًا، حتى سمعت آيات من القرآن فبكيت، وعدت إلى الله.
ومنذ ذلك الحين، صار يحافظ على الصلاة، ويجاهد نفسه على الطاعة، بل صار سببًا في هداية رفقاء له.

الباب التاسع: الدعوة إلى النجاة

أيها الغارق، إلى متى الغفلة؟ أما آن أن تترك الذنوب وتقلع عن المعاصي؟
أما آن أن تطرق باب التوبة وتقول:
«إلهي، عبدك العاصي أتاك تائبًا، فاقبلني في عبادك الصالحين»؟
اعلم أن باب التوبة مفتوح ما لم تبلغ الروح الحلقوم، وأن الله يفرح بتوبة عبده إذا تاب.
فاللهم اجعلنا من التائبين الأوابين، واغفر لنا وللغارقين، واهدهم إلى صراطك المستقيم.

النص الكامل للخطبة:

احوال الغارقين

للشيخ خالد الراشد

حديثنا ليس عن الغارقين في البحار والأنهار فأولئك إن كانوا صالحين كانوا شهداء بإذن العزيز الغفار ولكن حديثنا رسالة إلى الغارقين في الشهوات والملذات يرتوون منها وكأنهم مخلدون في هذه الدنيا تناسوا أن الدنيا دار ممر وامتحان وبعدها جزاء وحساب ووقفة تشيب لها الولدان أمام خالق الكون وجبار الأرض والسماء إنها رسالة إلى التائهين الذين ارتسمت على وجوههم مسحة البؤس والضياع بسبب إغراقهم في الذنوب والمعاصي التي أعمت قلوبهم وأنقصت عقولهم وأزالت عنهم النعم وأحلت بهم النقم قال سعيد بن المسيب ما أكرم العباد أنفسهم بمثل طاعة الله عز وجل ولا أهانوا أنفسهم بمثل معصية الله عز وجل إنها رسالة إلى الذين ليس لهم هدف في الحياة إلا إشباع الغرائز والشهوات وهم على ما هم فيه من ذل المعصية والهوان تراهم يجاهرون بأفعالهم وعصيانهم وتمردهم على أوامر الله غاب عن حسهم قوله صلى الله عليه وسلم كل أمة معافى إلا المجاهرون قال سبحانه ولقد درأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أظلم أولئك هم الغافلون إنهم يغرطون وهم لا يشعرون يسيرون في طريق أوله خزي وعار وآخره جهنم وبوار قبل أن ننطلق لسماع أحوالهم وأخبارهم أوجه كلمة للذين ركبوا سفينة النجاة فأقول تعالوا نتعاون على إنقاذ هؤلاء فهم بحاجة إلى قلوب الرحيمة والراحمون يرحمهم الرحمن إنهم بحاجة إلى كلمة طيبة والكلمة الطيبة صدقة إنهم بحاجة إلى ابتسامة صادقة وتبسمك في وجه أخيك صدقة فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فضا غليظ القلب لم فضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين فهيا نسمع بعضا من أحوالهم من أحوال الغارقين ليلهم ونهارهم سواء يظنون أن السعادة في لذة وشهوات وفي سفر ومغامرات استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله يستيقظ الواحد منهم قبل الفجر لموعد طائرة وسفر وسياحة ولا يستطيع أن يستيقظ لصلاة الفجر مع أن التخلف عن صلاة الفجر من علامات المنافقين فراهم في الملاعب يجوبونها طولا وعرضا خلف الكرة ولا يقون على أداء الصلاة ولا تراهم في صفوف المصلين رغم أن المسجد لا يبعد عنهم سواء خطوات قال جل في علاه عن محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوان سيماهم في وجوههم من أثر السجود وقال صلى الله عليه وسلم اكلفوا من العمل ما تطيقون واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة إنك لن تتقرب إلى الله بقربه أعظم من المحافظة على الصلاة إذا حز بك أمر يدك الجبال فتذكر أرحنا بها يا بلال اعلم أنه ما سميت الصلاة صلاة إلا لأنها تصل بفاعلها والمحافظ عليها إلى الجنة وتصل بتاركها والمتهاون فيها إلى النار فأي طريق تريد قال ابن تيمية قدس الله روحه حدثني بعض المشايخ أن بعض ملوك فارس قال لشيخ رؤاه قد جمع الناس على رقص وغناء يا شيخ إن كان هذا هو طريق الجنة فأين طريق النار من أحوال الغارقين أوقاتهم لهو ولعب غناء وطرب لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا يعرفون أسماء المغنيين والمغنيات والساقطين والساقطات بل ويعرفون ميولهم ورغباتهم وأخبارهم بل ربما يعرفون أسماء زوجاتهم وأبنائهم ولا يعرفون سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه وسيرة أمهات المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين يقرأون الصحف والمجلات وينفقون في سبيلها عشرات بل كل مئات ولا يقرأون القرآن ولا حتى لحظات تراهم عند الإشارات قد رفعوا أصوات مكبرات السيارات على موسيقى وألحان وهي مزامير الشيطان تهتز أجسادهم طربا ونشوة لذلك ولا يهتز لهم قلب عند سماع القرآن قال الله للشيطان واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا قال صلى الله عليه وسلم ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحريق والخمر والمعازل قال ابن القيم رحمه الله وهو يرد على أهل الغناء ألا قل لهم قول عبد نصوح وحق النصيحة أن تستمع متى علم الناس في ديننا بأن الغناء سنة تتبع وأن يأكل المرء أكل الحمار ويرقص في الجمع حتى يقع جراحات أمتنا في كل مكان في فلسطين وأفغانستان والشيشان وهؤلاء يمسون ويصبحون على الألحان ها هو الأقصى يلوك جراحه والمسلمون جموعهم آحد دمع اليتامى فيه شاهد ذلة وسواد أعينهن فيه خداد يا ويحنى ماذا أصاب شبابنا أو ما لنا سعد ولا مقداد المجاهدون يبيتون على أصوات المدافع والدبابات وهؤلاء يبيتون على أصوات المغنيين والمغنيات إنهم يغرقون وهم لا يشعرون من أحوال الغارقين فراهم في الأسواق والمجمعات يعتنون بالمظاهر والشخصيات والسرائر الخاوية فنون وأشكال من القصات والموضات والهيئات شبان وفتيات إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم همهم هتك أعراض المسلمين ومطاردة الساذجات تناسوا أن لهم أمهات وأخوات وقريبات إنهم يغرقون وهم لا يشعرون جاء شاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إذني بالزنن فثار المجلس وفار فقال الرحمة المهداة للشاب بصوت حنون وقلب رحيم أدنى فدنى الشاب فقال له صلى الله عليه وسلم أتحبه لأمك قال لا والله فداك أبي وأمي قال صلى الله عليه وسلم وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم قال صلى الله عليه وسلم أتحبه لأختك قال فداك أبي وأمي لا والله فلازال يذكره ويقول له أتحبه لعمتك وخالتك وابنتك والشاب يقول لا والله جعلني الله فداك فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده الشريفة

عليه وقال اللهم اغفر دنبه وطهر قلبه وحصن فرجه فقام الشاب من ذلك المجلس وليس شيء أبغض إليه من الزن وأنت يا من تغرق من أجل ذلك تخطط وتدبر وتسافر أترضاه لأهلك سأترك الجواب لك اعلم أنه ما عصي الله بدنب أعظم من نطفة يضعها الرجل في فرج لا يحل له لذلك قال الله ولا تقرب الزن إنه كان فاحشة وساء سبيلا إليك خبر من أخبار المتقين قال الحسن البصري كان في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاب يلازم المسجد للعبادة فعشقته امرأة فأتته في خلوة فكلمت لاحظ هو لم يذهب إليها فحدثته نفسه بذلك فشهق شهقة فغشي عليه فجاءه عم له فحمله إلى بيته فلما أفاق قال يا عم انطلق إلى عمر فأقرئه مني السلام وقل له ما جزاء من خاف مقام ربه فانطلق عمه فأخبر عمر فأتاه عمر فلما رآه شهق شهقة فمات فوقف عليه عمر فقال ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان أحسبه والله حسيبه من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله رجل دعتهم رأى ذات حسن وجمال فقال إني أخاف الله فيا دائما الخطايا والعصيان يا شديد البطر والطغيان ربح المتقون ولك الخسران ولمن خاف مقام ربه جنتان من أحوال الغارقين صارت الذنوب والمعاصي والآثام لهم عادة ومنها جن فهم في ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور يعيشون بلا أمن ولا أمان ولا راحة ولا استقرار بل قل بلا حياة فأي حياة بلا إيمان قال جل في علاه الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون قلوبهم تئن من الذنوب وتشتكي أطفأت الذنوب نور الإيمان في قلوبهم وقطعت الآهات والحسرات كبودهم وأرقت الهموم مضاجعهم يغرقون في لجج المعاصي والآثام من مصيبة إلى مصيبة ومن هم إلى هم ومن غم إلى غم ولا هم يتوبون ولا هم يتذكرون وصدق الله حين قال ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكة ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لما حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا هو مع ظلاله وعصيانه وتمرده يحاجب قال رب لما حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أسدك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه والعذاب الآخرة أشد وأبطى إنهم يغرقون ومع هذا لا يفكرون بالتوبة والندم اللهم إلا خطرات تمر على قلوبهم تناديهم إلى ركوب السفينة والانضمام إلى قوافل التائبين يسمعون المواعظ ولا يتعظون يدفنون الموتى ولا يعتبرون يرون الحق ولا يتبعون يدعون ولا يستجيبون نقول لهم ما قال الله يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجيب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين هذه بعض من أحوالهم فتعال نسمع بعض من أخبارهم من أخبارهم المتواترة إذا تاب صاحب لهم وركب سفينة النجاح بدأوا بالحرب الإعلامية عليهم يلاحقونه بنبالهم وسهامهم يعددون أخطاءه وزلاته فقائل منهم لن يصبر سيعود إلى حالته السابقة وآخر يقول أيام وأسابيع وسيرجع إلى سابق عهده وآخر يقدم له النصيحة فيقول ما لك وهذا الطريق أنت على خير سبحان الله لا يصلي ولا يصم ولا يقيم حدود الله ويغرق في بحار المعاصي ويقول له أنت على خير أي خير هذا قال الله جل في علاه ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قريب وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القريب ولين ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون هكذا حال الغارقين لا يريدون أن يغرقوا بمفردهم ولو حاولت إنقاذهم أغرقوك معهم وكما قيل ودت الزانية لو زنت جميع النساء حتى يصبحوا سوى عجبا لهم بدل أن يفرحوا لهداية صاحبهم واستقامته يخططون كيف يردونه إلى شواطئ العصيان جاءتنا الأخبار أن أحد الشباب سلك طريق الاستقامة وركب سفينة النجاة وبدأ يحافظ على الصلاة ويحفظ القرآن بدأ يتذكر أصحابا له لا زالوا يغرقون في لجج المعاصي والآثام ودلوا أنهم ركبوا معه في سفينة التوبة والنجاة وانضموا إلى قوافل العائدين زارهم وليته لم يفعل وهذه نصيحة لكل تائب وجديد في طريق الاستقامة لا تذهب لأصحاب الماضي وحيداً خذ معك من يعينك على دعوتهم لأن الكثرة تغلب الشجاعة زارهم يريد لهم الهداية فبدأ الهجوم عليه من كل الجهات أتذكر يوم كذا وكذا وعلت الأصوات وانطلقت الضحكات وقام من عندهم بعد أن جددوا جراحاً ماضياً وحركوا في القلب والنفس أشياء وبدأ الصراع من جديد جاؤوه بعض أيام يعرضون عليه السفر إلى مكان قريب بقصد شراء سيارة قالوا له نريد من يذكرنا بالله ويأمنا في الصلاة ويعلمنا الجمع والقصر فزينت له نفسه السفر وانطلق معهم وليته لم يفعل هناك حيث يعصى الله استأجروا شقة مفروشة وتركوه فيها وذهبوا وهم يخططون كيف يعيدونه إلى شواطئ الضياع مرة ثانية أمضوا ليلتهم في سهرة الليلية بين خمر وغناء وهو هناك ينتظرهم اتفقوا مع بغي زانية فاجرة على أن يدفعوا لها الثمن أضعافاً مضاعفاً إن هي استطاعت أن توقع صاحبهم الفاحشة الله أكبر يدفعون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله أدخلوها عليهم ومعها خمر وشريط غناء حتى تكون الليلة حمراء والخمر مذهبة للعقل والغناء بريد الزناء خلت به وخلا بها وما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما ولا زالت به حتى سقطه كأساً من خمر ثم ثانية ثم ثالثة ثم وقع المحضور وانهدم في لحظات بنيان لطالما تعب حتى بناه بنيان لطالما تعب حتى بناه نام في فراشه عارياً مخموراً والعياذ بالله فلما أصبح الصباح جاء شياطين الإنس يطرقون الباب وبحكاتهم تملأ المكان فتحت الفاجرة لهم الباب فقالوا لها هات ما عندك ما الخبر ما البشارة قالت أبشروا أبشروا فقد فعل كل شيء شرب الخمر وزنى ثم نام وهو عريان في فراشه الآن تباً لهم ولأمثالهم أيفرحون ويستبشرون أن عصي الله يفرحون أن صاحبهم زنى وشرب الخمر بعد أن كان يصلي ويقرأ القرآن دخلوا عليه ضاحكين شامتين وهو مغطاً في فراشه أيقظوه فكرر النداء فلان فلان فلم يجبهم فكرر النداء فلان فلان فلم يجبهم حركوه قلبوه في فراشه فلم يستيقظ اسمع الفاجعة صاحبنا شرب الخمر وزنى ونام ومات من ليلته في فراشه ومات من ليلته في فراشه على أسوأ ختم إنا لله وإنا إليه راجعون يا الله أما كان صاحبهم يصلي ويصوم ويقرأ القرآن أليس قد جاء معهم يريد لهم الهدايا فأرادوا له الغوايا لقد دفعوا أموالهم وأوقاتهم ليصدوه عن سبيل الله فهل سينقذونه من عذاب الله أي أصحاب هؤلاء وصدق الله حين قال ويوم يعظ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا لقد اضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذوه فلا تصحب أخ الفسقي وإياك وإياه فكن فاسق أردا مطيعا حين آخاه هذا حال الغارقين تريد إنقاذهم فإذا هم يخططون لإغراقك معهم لأنهم يغرقون قال جل في علاء فذارهم في غمرتهم حتى حين أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون قال سبحانه أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون قال صلى الله عليه وسلم إن من الناس ناسا مفاتيح للخير مغالقة للشر وإن من الناس ناسا مفاتيح للشر مغالقة للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه رواه ابن ماجه وحسنه الألباني رحمه الله ماذا صنعت بهم الذنوب قال سبحانه قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين وقال عز من قائل أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثار في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واقع ذلك بأنهم كانت تأتهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله الله إنه قوي شديد العقاب اسمع ماذا صنعت الذنوب والمعاصي والآثم وكم دمرت من أمم وأفراد وأقوام وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أن هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير من الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه وجعل صورته أقبح صورة وأشنعها وباطنه أقبح من صورته وأشنع وبدل بالقرب بعدا وبالرحمة لعنة

وبالجمال قبحا وبالجنة نارا تلظا وبالإيمان كفرا فهان على الله غاية الهوى وسقط من عينه غاية السطوط وحل عليه غضب الرب فعال فأهواه ومقفه أكبر المقف فأرضاه الله فصار قائدا لكل فاسق وفاجر رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة فعياذا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك قال الله له للشيطان قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ولقد حذرنا الله من مكره وكيده فقال يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما الذي بأسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ما الذي أوصله إلى تلك الحال إنها الذنوب والتكبر على أوامر الله ما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى على الماء فوق رؤوس الجبال وما الذي صلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نقل خاوية وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى تقطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق والأرواح للحرق إنها الذنوب قال سبحانه كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليالي وثمانية أيام حسوبة فترى القوم فيها صرعاء كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقي وجاء ثرعون ومن قبله والموتفكات بالخاطئ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية إنا لما طغى الماء حمناكم في الجار لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية من الذي أرضاهم وأوصلهم إلى تلك الحال إنها الذنوب ومن الذي رفع قرى اللوطية حتى سمع نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل آلياً مسافلها فأهلكهم جميعا ثم أتبعهم حجارة من السماء فأمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة لما لم يجمعها على أمة غيرهم وللظالمين أمثالها تدبر في قوله فلما جاء أمرنا جعلنا آلياً سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ما سبب هلاكهم وتدميرهم إنها الفطر المنتكسة التي تجتهي الرجال دون النساء إنها الذنوب وما أدرك من الذنوب ومن الذي أرسل على قوم شعيد الفحاب العذاب كالظلل فلما فار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظه اسمع قول الجفار لما كذبوا رسوله فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظل إنه كان عذاب يوم عظيم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وما الذي أهلك قوم صاحب ياسين حتى خمدوا على آخرهم وقد حذرهم وقال لهم يا قوم اتبع المرسلين إنها الذنوب باختلاف أنواعها وتغاير أصنافها قال سبحانه وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مثرة فيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكم أهلكنا من القرون من قبله وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا قال الإمام أحمد حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا صفان بن عمر قال حدثني عبد الرحمن بن جبير عن أبيه قال لما فتحت قبرص فرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض قال فرأيت أبا الدرداء جالسا وحده يبكي فقلت يا أبا الدرداء ما يبكيك ما يبكيك في اليوم أعز الله فيه الإسلام وأهله فقال ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضعوا أمره بينما هم أمة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما صاروا إليه قال الحكيم الخبير ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربه وما زادهم غير تتفيه وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد فأما الذين شقوا ففي النار خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربه إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدو ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربه حارة الأفكار حارة الأفكار في قدرة من قد هدانا سبلا عز وجل كتب الموت على الخلق فكم فلا من جمع وأفنى من دول أين نمرود وكنعان ومن ملك الأموال واللا وعزل أين من ساد وشاد وبنو هلك الكل ولم تغني القلل أين أرضاب الحجى أهل النهار أين أهل العلم والقوم الأول سيعيد الله كل منهم وسيجزي فاعلا ما قد فعل من أخبار الناجين الذين ركبوا في سفينة النجاة في ثلث الليل الأخير في صلاة القيام ليلة التاتع والعشرين آخر ليلة في رمضان ونحن نصلي القيام قرأنا بصاد والدخان ومرت بنا آيات وعظات محمل في قول رب البريات هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ومع تلاوة هذه الآيات بدأت أصوات بكاء شاب صغير في العشرين من عمره ترتفع بدأت الآيات تهز كيانه وتحرك قلبه ووجدانه قطع قلوب المصلين ببكاءه وفي الركعة الثانية بدأت آيات سورة الدخان لتسامع لتحرك القلوب اسمع كيف هانت أمة كاملة على الله لما عصت أوامره وخالفت رسله قال سبحانه ولقد فتنا آل فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلي عباد الله إني لكم رسول أمين وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون وترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين حانوا على الله يوم خالق أوامره لم يستطع صاحبنا التوقف عن البكاء من شدة وقع الآيات عليه ما أعظم القرآن وما أجمل آياته إذا لامست أوتار القلوب اسمع بارك الله فيك واسمع رعاك الله في سياق آيات سورة الدخان ذكرنا الله بموعد عظيم موعد لا تنساه سيجمع الله فيه الأولين والآخرين سيأتي الغارقون في لجج المعاصي والآثام وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون وسيأتي أهل الصلاة تنير الحسنات طريقهم وذروبهم قال سبحانه إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لا يغني مولاً عن مولا شيئا ولا هم يوفرون إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم فماذا أعد الله لهؤلاء من العذاب وماذا أعد الله لأولئك من النعيم إن شجرة السقوم طعام الأثيم كالمهلي يغلي في البطون كغلي الحميم خذوه فاعدلوه إلى سواء الجحيم ثم صدوه فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم إن هذا ما كنتم به تمترون هذا ما أعد الله للغارقين في لجج المعاصي والآثام فماذا أعد الله لأولئك الذين ركبوا سفينة النجا قال الله في سياق الآية إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون يلبسون من صندس واستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فارتقب إنهم مرتقبون صنعت الآيات في صاحبنا عجب العجب حتى أشفق المصلون على شتاب من شدة بكائهم ولما انتهت الصلاة إلتفوا حوله يهدئون ويذكرونه برحمة الله وفضل الله جلست أتحدث أنا وإياه وهو مستمر في بكائه ويقول والله إني خجل من الله سنوات طوال وأنا أعصيه وهو يراني لم أستحي من نظره إلي واطلعه علي سنوات طوال ما صلت فيها ولا صليت هذا أول رمضان في حياتي أصلي وأصوم وأقوم كنت أغرق في وحل المعصية والرذيلة لم يبقى ذنب صغير ولا كبير إلا فعلناه وكررنا سكر وفواحش ومخدرات أنام على الأغاني أصح على الألحان أي حياة هذا ثم وأنا على هذه الحال وقبل رمضان بليلتين مر علي الأصحاب وقد جهزت لهم مسكرا ومخدرا وجئت معي بالعود حيث أني أعزف وأغني لهم كنا أربعة أما إثنان منهم فقال لقد ملنا من هذا كله آنا الأغان أن نعرف معنى الحياة لقد ضاع من عمرنا ما فيه الكفاية ولقد صلينا الليل وصلينا العشاء في المسجد نريد أن تكون هذه بداية لحياة استقامة ونهاية لحياة الضياع ولقد كانت بداية ونهاية يقول صاحبنا فنزلت أنا وصاحبي بعدتنا من خمر ومسكر ومضوهم في طريقهم وأمام أعيننا أحد الشباب المستهترين يتلعب بسيارته وهي يمنة ويسرة وقد انطلق بسرعة جنونية فانحرفت سيارته واصطدمت بسيارة الشباب في حادث فضيع ونحن نرى ونسمع جثنا إلى السيارة مسرعين فإذاهم فإذاهم قد تقطعت أجسادهم وسالت دماؤهم وتكسرت عظامهم وفاضت أرواحهم إلى باريها وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت من أتحيد قل إن الموت الذي تفرون منك فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة

فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور سبحان الله منذ لحظات كانوا معنا قالوا لنا ملنا حياة الضياع هنيئا لهم صدقوا صدقوا ومضوا في لحظات هنيئا لهم فلقد خرجوا لتوهم من المسجد بعد أن صلوا العشاء مع الجماعة ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول من صل العشاء في جماعة فهو في ذنبة الله حتى يصبح أم سوه ولكنهم لم يدركوا الصباح يقول صاحبنا قلت لصاحبي الذي كان معي وأنا أبكي كيف لو كنا معهم بأي وجه وعلى أي حال كنا سنلقى الله سنلقاه ونحن سكارة نحمل الخمر والمخدرات معنا ما أحلم الله علينا كم ليلة بيتناها على فواحش ومنكرات وهو يرانا أخذ يروي خبره وخبر أصحابه ودموعه على حده وأنا أقول في نفسي هنيئا لك هذه الدموع هنيئا لك هذا الندم هكذا حال من يريد أن يركب في سفينة النجاة أخذ يقول وخجلي من ربي كيف طريق النجاة وهل يقبلني بعد أن فعلت وفعلت هدأت من روعه وبشرته بشارات بشرته بأن الله غفار لمن تاب وآمن بشرته بأن التوبة تجب ما قبلها بشرته بأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له بشرته أن الله يبدل السيئات إلى حزنا بشرته أنه ليس أحد أفرح بتوبته من الله بشرته أنه سبحانه يحب التوابين ويحب المتطفرين كان قد جاء من العمرة منذ ليلتين شهد ليلة السابع والعشرين في الحرم ولأول مرة يرى بيت الله قلت له بعد أن هدأ قليلا اذهب الآن حافظ على الصلاة واحمد الله أن مد في عمرك وأمهلك قال الحمد لله الذي أمهلنا ولم يأخذنا على حين غره قلت اترك صحبة السهر والضياع والزم أصحاب الخير اركب معهم سفينة النجاة وأنا أنتظرك بعد أيام أنتظرك بعد العيد لنتحدث أنا وإياك اتصل علي بعد العيد بأيام قال سأصلي معك الفجر غدا إن شاء الله جاء على الموعد نظرت في وجهه فإذا هو بدأ يظهر عليه نور الإيمان ووقار الصالحين قلت صدق الله حين قال ومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون لما تكلم ظهر من كلامه الراحة والإطمئنان أول ما تكلم قال ما أجمل صلاة الفجر وما أجمل القرآن قلت في نفسي سبحان الله بالأمس معاذف وألحان واليوم صلاة وقرآن قال جئت بإثنين من أصحاب الماضي هم على استعداد لركوب سفينة النجاة فلقد ملوا حياة الضياع قلت له كيف ومتى بدأ الضياع قال بدأ وأنا في الأول المتوسط بدأ بسيجارة ثم حبوب للمذاكرة ثم سهر وتخلف عن الصلاوات ثم حشيش وخمر وفواحش ومنكرات ثم سفر وضياع سبع سنوات على هذه الحال ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ما أحلم الله علينا كم ليلة بثناها على فواحش ومنكرات أخذ يقول وخجلي من ربي جل في علاه قلت احمد الله واستقم على طريق الاستقامة وأنا أقول أنت يا من لازلت تغرت أما أنا الأوان لتتوب وتندم وتقلع عن الذنب وتعزم هل سنراك تسابق المصليين إلى الصف الأول أم ستبقى على تخلفك تتقاذفك الأمواج حتى يتخطفك الموت على حان لا ترضي ولا تسر أما أنا الأوان أن تنطرح على بابه وتفر إليه وتقول وقفت ببابك يا خالقي أقل الذنوب على عاتقي أجر الخطايا وأشقى بها لهيبا من الحزن في خافقي يسوق العبادة إليك الهدى وذنبي إلى بابكم سائقي أتيت مالي سوى بابكم طريحا أناجيك يا خالقي إلهي أتيت بصدق الحنين يناجيك بالتوب قلب حزين إلهي أتيتك في أضلعي إلى ساحة العفو شوق دقين إلهي أتيت إليك تائبا فألحق طريحك بالتائبين أعنه على نفسه والهوى فإن لم تعنه فمن ذا يعين أبوح إليك بما قد مضى وأطرح قلبي بين يديك بقايا الخطايا ودرب الهوى وما كان تغفى دروبي عليك تريد النجاة سؤال أسألك إياه ولا أظنك ستقول لا لا تريد النجاة إذا اركب سفينة النجاة تعرف على الله تريد أن يكون الله معك فاحرص على تقوه إذا أردت أن تحفظ في نفسك وأهلك ومالك فاحفظ الله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احفظ الله يحفظ احفظ الله تجده تجاهك تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة أما سمعت عن خبر الثلاثة الذين أخبرنا بخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين آواهم المبيت إلى غاب فانحدرت صخرة من الجبل فسدت فتحة الغاب فأصبحوا في ظلام دامس لا يعلم بمكانهم أحد إلا الله إنه الموت والهلاك المحقق إن لم يوطف بهم الله فقالوا لا ينجيكم اليوم إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فدع الأول ببره بوالدين وأنه لا يقدم عليهم مالا ولا ولدا ودع الآخر بترك الفاحشة والزنا وكان قادرا على ذلك ودع الثالث أنه أعطى الأجير أجره قالوا في دعائهم وتضرعهم اللهم إن كنت تعلم أننا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك تفرج عنا ما نحن فيه فلما علم الله صدقهم وإخلاصهم انفرجت الصخرة وخرجوا يمشون هم تعرفوا على الله في الرخاء فعرفهم في الشدة توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم فأي عمل سأتوسل أنا وأنت به إلى الله إذا آوان المبيت إلى غار أو تهى في الصحراء أو في الغفار يا رب عفوك لا تأخذ بزلتنا وارحم يا رب ذنبا قد جنيناه كم نطلب الله في ضر يحل بنا لما تولت بلايان نسيناه ندعوه في البحر أن ينجي سفينة لما وصلنا إلى الشاطع عصيناه ونركب الجو في أمن وفي دعة وما سقطنا لأن الحافظ الله قال ابن القيم رحمه الله إذا استغنى الناس بالناس فاستغني أنت بالله إذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله إذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله إذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إلهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى الله تعرف أنت إلى الله وتودد إليه وانطرح بين يديه تنل بذلك غاية العز والرفعة كما قال الله من كان يريد العزة فلله العزة جميعا وقال ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون أخيرا اعلم بارك الله فيك إن للتوبة بابا عرض ما بين النصراعيه ما بين المشرق والمغرب وفي رواية عرضه مسيرة سبعين عاما لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها فالباب مفتوح فالباب مفتوح فهل لا ولجت واعلم رعاك الله أن الله نادى فقال يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الدنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم ولقد سمعت النداء فهل لا استغفرت اعلم يا رعاك الله أن الله يبصد يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبصد يده بالنهار ليتوب مسيء الليل والله يحب الاعتدار فهل لا أقبلت واعتدرت ردد وقل اللهم اجعني من التوابين واجعني من المتطفرين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون قل أنا العبد الذي أظهى حزينا على زلاته قلقا كئيبا أنا العبد الغريق بلج بحر أصيح لربما ألقى مجيبا فيأسفي على عمر تقضى ولم أكسب به إلا الذنوب أنا المضطر أرجو منك عفوا ومن يرجو رضاك فلن يخيب قبل أن نختم وننتهي أود أن أقرأ لكم هذه الرسالة التي وصلتنا من أحد الحاضرين يقول فيها إلى الشيخ قال أنا من أبناء المسلمين لكني لا أصلي ولا أصوم أنا كافر لا أعرف معنى الإسلام وها أنا اليوم أعلن توبة أمام الله عز وجل ثم أمامك وأمام الحضور فجزاكم الله كل خير أريد أن تقرأ أمام الحضور ها أنا أردد وأقول أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله ها أنا أردد اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ادعو لي بالثبات ادعو لي بالثبات اللهم اللهم أحيي قلوبا أماتها البعد عن بابك ولا تعذبنا بأليم حجابك يا أكرم من سمح ابن نوال وأوسع من جاد بالإفوال اللهم أيقذنا من غفلتنا بلطفك وإحسانك وتجاوز عن جرائمنا بعفوك وإحسانك اللهم اسلك بنا مسالك الصادقين الأبرار وألحقنا بعبادك المصطفين الأخيار وآتنا في الدنيا حسنة وبالآخرة حسنة وغنى عذاب النار اللهم اقبل توبة التائبين اللهم اقبل توبة التائبين اللهم اقبل توبة التائبين واغفر ذنوب المذنبين ودل الحيارء واهدي الضالين واغفر للحاضرين والغائبين واغفر للأحياء وللميتين اللهم آمنا في أوطاننا أصلح أئمتنا وولاة أمورنا اجعل بلدنا هذا آمنا سخاء وخاء وسائر بلاد المسلمين اللهم احفظنا بالإسلام قائمين وقاعدين وراقبين نسألك اللهم توبة نصوحا قبل الموت وشهادة عند الموت ورحمة بعد الموت يا رب العالمين اللهم رحمتك نرجوه فلا تكنا إلى أنفسنا ولا طرفة عين ولا أقل من ذلك اللهم عاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله إنك أنت أهل التقوى وأهل المغفرة اللهم صلي على محمد في الأولين وصلي على محمد في الآخرين وصلي على محمد في الملأ الأعلى إلى يوم الدين سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين